

الحداثة و العمل الثوري

(1) د. بخضرة مونس

لا شك أن عملية التحديث تبقى ضمن هاجس كل فرد ومجتمع والبشرية جمعاء، لما تحمله من إمكانات لا متناهية لتطلعات الإنسان في الحياة، وعلى أنها النموذج الذي يجب أن نكون عليه، وهذا الذي يجعل من فعل التحديث على أنه فعل مستقبلي يحمل برامج متعددة ومتنوعة لإنسان الغد، الأمر الذي يظهر الحداثة كمشروع شامل يمس جميع المكونات الاجتماعية للفرد بما يمتاز به من شمولية. هي جملة الخصائص التي تحيط بظاهرة الحداثة لا يمكن فهمها إلا بالبحث المشروط بالتأمل والتفكير، كون أن الحداثة هي الفترة التي بدأ فيها تشييد القوالب الكبرى للإنسان كا: العقل، المعرفة، الحرية، الموضوعية، العدالة، الهوية، وتأسيس فكرة التقدم - اتجاه العالم نحو التقدم والتحرر. وهي دائما تحيلنا إلى الأنوار والثورة الفرنسية، إذا ما أردنا أن نعطيها تعريفا بسيطا في نفس الوقت ليس خاطئا كما يقول لوك فيري. فما هو قائم ومشترك بين كل الأمم الحديثة هو تكثيف العمل البشري والسيطرة على الطبيعة. وهذا هو الذي أحدث الثورة الكبرى في ميدان قوى الإنتاج *Les forces productives*. لا يوجد لها وجه واحد، بل وجهان متقابلان يشكل الحوار بينهما الحداثة: وهما العقلنة *rationalisme* والذاتوية *autism* حسب ألان تورين.

مفهوم الحداثة وصعوبة التعريف: الحداثة هي جملة سمات أو مظاهر خاصة بعلامات، يقول دوميناج: إن الحداثة ليست مفهوما للتحليل، فليست هناك قوانين للحداثة، توجد فقط سمات لها، بل أكثر من ذلك ليست هناك نظرية للحداثة (1) *théorie de la modernité*. وهي ليست بمفهوم ثقافي واجتماعي أو تاريخي، فعن أي شيء نتحدث إذا تناولنا مفهوم الحداثة؟ (2).

لقد تحدث جان بودريار في الحداثة قائلا: إن الحداثة نمط حضاري متميز يتعارض مع النمط التقليدي، بمعنى أنه يتعارض مع كل الثقافات السابقة عليه أو التقليدية.

في هذا المسألة يناقش جان بودريار موضوع الحداثة على أنه مقابل التنوع الجغرافي والرمزي للثقافات التقليدية، ولكن الحداثة تفرض نفسها على أنها شيء واحد يشع عالمنا انطلاقا من الغرب ومع ذلك فهي تظل مفهوما ملتبسا يشير بصورة مجملية إلى تطور تاريخي وإلى تغير في الذهنية.

1 أستاذ فلسفة بجامعة تلمسان - العنوان: ص ب 317 الرمشي 13500 تلمسان الجزائر

يمكن إدراكها عبر واقع الثورات والتحولات العلمية والتقنية والسياسية الكبرى، التي بدأت في أوروبا ولهذا حسب جان بودريار هي: "أخلاقية مقننة" للتغيير تتعارض مع الأخلاقية المقننة للتقليد (3).

يتساءل دومينياج: ألا يمكن أن نعتبر أن الحداثة معرضة لأن تكون تقليدا هي الأخرى، أي تقليد للحداثة؟.

الحداثة والقلق modernité et l'anxiété: يعتبر دومينياج أن الحداثة معضلة يعيشها الفرد اجتماعيا وسياسيا، لكنه لا يستطيع الوعي بها، إن مصدر هذا القلق هو ما يجعل الحداثة معضلة، لأن الحداثة نفسها تضعنا أمام جدليات التغيير المتواصل الذي يتجاوز ما كان قد أقره بالأمس. والذات كمبدأ للحداثة يدفعها إلى أن تسير بسرعة أكبر، وإلى المزيد من الاستهلاك إلى أن تصبح إيديولوجيا للتغيير من أجل التغيير. ويبقى الهروب من القديم هو هاجس الحداثة. يقول جان دومينياج: الحداثة كونيا هي ظهور المجتمع البرجوازي الحديث في إطار ما يسمى بالنهضة الغربية أو الأوروبية التي هي بمثابة عتبة للحداثة (4).

4- الحداثة، فكرة وتاريخ: يعتبر جل المؤرخين أن الحداثة بدأت بعصر النهضة، أي أن النهضة كانت عتبة الحداثة، إلى درجة أن بعض المفكرين اعتبروا أن الأنوار lumière هي الممهّد للثورة الفرنسية، كونها دشنت انطلاقة أوروبا الحديثة بعقلانياتها وبدولتها الحديثة على المساواة والتعدد والتفتح.

يعتبر بودريار القرن السابع عشر والثامن عشر. هما اللذان شهدا التأسيس الفعلي للحداثة، فخلال هذين القرنين وضعت الأسس السياسية والفلسفية للحداثة، ويتمثل ذلك في التفكير الفردي والعقلاني الذي بات ديكارت وفلسفة الأنوار ممثلاً له.

مراحل الحداثة: يرى جان مونيياج: أن الحداثة مرت بثلاث مراحل كبرى عرفت فيها ثلاث أزمات كبرى:

- بدأت أولها مع القرن الثامن عشر مع الثورة الفرنسية التي جسدت النظريات الحديثة في الواقع السياسي والاجتماعي.

بينما الثانية كانت مع نهاية القرن التاسع عشر، وهي التي أعلنت أفول أطروحات التقدم والعقلانية والليبرالية أمام صعود حركة الجماهير وتأجج المشاعر الجماعية، تتمثل في ظهور الحركات الوطنية والقومية والفاشية والاجتماعية والمسيحية.

وأما الثالثة: فإنها بدأت مع الستينات ولم تنتهي بعد تفاصيلها وأعراضها وتتمثل في هبوط الإيديولوجيات الجماعية Collective ideologies وانتصار الخاص على العام والنقد الجذري للنزعة الإنسانية Humanism .

أما هبرماس الذي رأى أن العوالم الحديثة المعاشة Mondes modernes vécu لم تعد تخضع لبنى عقلانية هادفة ومحددة بغايات، بقدر ما أصبحت تخضع لنماذج الدمج الاجتماعي L'intégration sociale، ترمي إلى إعادة تشكيل هويات شخصية مجردة Remodeler personnelle abstraite identités وتدفع إلى التفرد، تلك هي صورة الحداثة (5).

يشير مفهوم التحديث إلى جملة من السيرورات تراكمية يشد بعضها بعضاً، فهو يعني تحديث الموارد وتحويلها إلى رؤوس أموال، ونمو القوى الإنتاجية، وزيادة إنتاجية العمل، كما يشير إلى إنشاء سلطات سياسية، وأشكال العيش المدني والتعليم العام، وأخيراً يشير إلى علمنة القيم والمعايير.

لقد كان هيجل الفيلسوف الأول الذي أعطى بكل وضوح مفهوماً للحداثة والعقلانية، دلالة، صارت اليوم موضوع تساؤل. إذ يقول في كتابه تاريخ الفلسفة Histoire de la philosophie: إن ديكرات هو الممهد الحقيقي للفلسفة الحديثة، وذلك باعتباره قد اعتمد فعل التفكير وفصله عن الميثولوجيا الفلسفية... ولن تتمكن من تمثل مدئ التأثير الذي مارسه على عصره وعلى الأزمنة الحديثة Les temps modernes، إنه بطل أعاد المسائل بصورة حذرة إلى البداية، فأعاد تشكيل الخطاب الفلسفي. ويقول أيضاً في مقاله «الاعتقاد والمعرفة La croyance et la connaissance ما يلي: إن مبدأ الفلسفة لدى كانط Kant وفيشته Fichte و جاكوبي Jacoby، أي مبدأ الذاتية هو الشكل العظيم لروح العالم والمسمى بمبدأ الشمال، وهو المعروف دينياً بمبدأ البروتستانتية principe protestant.

فإذا كان هناك مبدأ أساسي تشكلت عليه الحداثة، فلن يكون غير مبدأ الذاتية بما أنه كان محور الفلسفة الحديثة كلها، ذلك أن إشكالية الذات هي التي أعطت لفلسفات الكوجيتو شحنة الدفع الأولى نحو التجديد، مستفيدة من الإصلاح الديني وتراث عصر الأنوار وتياراته بما فيها الاكتشافات العلمية الجديدة، إذ أن مفهوم الذات منذ اليونان إلى غاية القرن السادس عشر، ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالمنطق واللغة. إذ حاول ديكرات فك هذا الارتباط عن طريق الكوجيتو، وهو المنحى نفسه الذي أخذته فلسفات الذات فيما بعد، مع كانط Kant وفيشته Fichte وشيلينج Schelling وهيجل Hegel، حينما تساءلوا عن حقيقة الذات، وعن علاقة

الذات العارفة بموضوع المعرفة، لقد أوضحوا أن الفكر ليس فحسب موضوع مبادئ الفكر وإنما فاعلها و واضعها الذاتي(6).

لقد سبق لديكارتر Descartes وأن بين إمكانية بناء جميع اليقينيات على ” أنا أفكر je pense ”، وقد أكد ديكارتر ذلك عندما بين: أن كل فكر هو في جوهره كوجيتو cogito، وأن الفكر يفترض دوما وحدة الأنا- أفكر. وهذه الاعتبارات فإن تمثلاتنا من حيث هي تمثلات تعود إلى تلك الوحدة، أي وحدة أنا- أفكر. وكان الكوجيتو هو الخلاصة النظرية للشك في الذات، ولقد أجاب ديكارتر عن السؤال: من أنا؟ بقوله أنا كائن يفكر.

ويهدف الشك الديكارتي هنا إلى تعويد العقول على مفارقة الحواس وهذا الافتراق هو شرط اليقين بالذات(7).

وإذا كان ديكارتر قد أكد من خلال الكوجيتو على مكانة الذات ودورها في بناء عالم حديث، فإن كانط ذهب إلى أبعد حد من ذلك، حينما جعل من الذات محور المعرفة. وتتحدد أرضية الذات عند كانط بعملها التشريعي المتعالي في عملية المعرفة، وبذلك يكون أيضا قد أكد على موقف ديكارتر من أن الفكر ليس فحسب موضوع مبادئ الفكر، وإنما فاعلها و واضعها الذاتي- هذا ما أكد عليه كانط بعد ديكارتر، عندما بين أن كل فكر هو في جوهره كوجيتو- لكن كانط هنا يشير إلى قيمة المعرفة السليمة والبناءة، هذه المعرفة التي يحد من ثبوتها هذا الشك في الذات الذي تشكّل مع ديكارتر. فكانط يرى أن جوهر الأشياء بعيد المنال، لكن بنية الظواهر خاضعة لقوة العقل الموحدة التي تفرض شروطها.

إذا كيف يمكن أن نتبين معالم الحداثة في الثورة؟

لر يكن أحد في العالم، يتوقع ما شهدته المجتمعات العربية مع مطلع عام ألفين و إحدى عشر، من حراك شعبي immobile populaire جارف بجميع أطيافه و طبقاته و أعمارهم، من بائع الخضار إلى الطبيب و المحامي، و من الأطفال إلى الشيوخ، و من الذكور إلى الإناث. هبة جماهيرية تعكس همومها و مطالبها في ظل مدى صعوبة الوضع التي آلت إليه. وضع لا يحتمل الاستمرار فيه بنفس الوتيرة أو التأجيل، بجملة مطالبها، أثبتت مدى نضج الوعي المدني والحس الاجتماعي الذي بات عليه اليوم الشعوب العربية، و هي في عمومها بدأت في شكل انتفاضات شعبية Les soulèvements populaires تطالب ببعض الإصلاحات و بحقوقها في الحياة.

الثورات العربية الراهنة وأفق الحداثة:

ما حدث ولا زال يحدث، هو موجة من الثورات وانتفاضات تهدف إلى تحقيق الديمقراطية بمفاهيمها الرئيسية وحمولات الحداثة *Les charges de la modernité* على غرار الثورات الكبرى في التاريخ، ابتدأت بثورة سلمية غير عنيفة في تونس، ثم امتدت هذه الثورة السلمية إلى مصر، ونتيجة لذلك سقط النظام فيها، وهي خطوة جد مهمة من أجل استكمال مقومات الثورة وإقامة نظام جديد فيها، رغم بعض المخاوف التي لا تزال قائمة تهدد مكاسب الثورة، ثم انتقلت إلى اليمن ثم إلى ليبيا وأخيراً إلى سوريا، حيث بدأت ملامح تحقيق إصلاح جذري تظهر للأفق، ولم يستبعد (المفاوضات) مع النظام كوسيلة لتحقيق هذا الهدف. ثم تطورت بعد استخدام السلطة للعنف في مواجهتها إلى مطلب إسقاط النظام القائم، وحدثت مظاهرات في عمان، استطاع النظام خلالها من قمعها بأدواته الخاصة، (8).

وحدثت انتفاضات هادئة في دولة البحرين، سرعان ما تحولت إلى انتفاضة عنيفة، قامت بها فئة من الشباب مهضومة الحقوق، تمثل غالبية الشعب البحريني، وتبنى الفصيل الأكبر فيها (الوفاق) طلب إدخال تعديلات جذرية في النظام وتحويله إلى ملكية دستورية، وهي الأخرى أيضاً قوبلت بعرض النظام لها الحوار صاحبه قمع بوليسي *Politique de répression*، خاصة ضد فئات معارضة بارزة، خاصة عندما حضيت بالدعم العسكري السعودي والإماراتي لها، حيث أعلن بعده حالة طوارئ، و تم خلالها توظيف العنف بشدة من قبل النظام الحاكم.

كما انتقلت هذه المظاهرات إلى الأردن، ولكنها ما زالت بشكل محدود حتى الآن تعيش مخاضها، وتباينت فيها مطالبها، بين طلب ملكية دستورية أو ملكية برلمانية، وأحياناً طلب إسقاط النظام، ولكن النظام دوماً يسعى لكي يجهضها ويتلعبها بمختلف الوسائل والطرق.

و في بلدان المغرب العربي، فهي أخرى عاشت تجاذبات الثورات فيها ولكن بدرجات متباينة، إذ كانت ذات فعالية مستمرة في الغرب، في الوقت الذي استبق فيها النظام بطرحه لبعض الإصلاحات، كإعادة النظر في الدستور وتعديل صلاحيات رئيس الوزراء، وتفعيل البرلمان بأقطاب سياسية مختلفة، لكن إصلاحات لم تحض بالإجماع الوطني عليها، فلا زالت حركت عشرين فبراير تقوم بمظاهرات بين حين وآخر (9).

بكثافة هذه الأحداث، التي كانت فيها ظاهرة الثورة، هي الظاهرة البارزة في الساحة العربية منذ عهد النكسة 1967م، لكن الثورتين التونسية والمصرية والليبية، أظهرت عكس ذلك كله، إذ بها أثبتت الشعوب العربية كلها قدرتهم على القيام بثورات شعبية، أطاحت بأنظمة

عنيفة وديكتاتورية لم تكن في الحسبان.

وبذلك أصبح خيار الثورة، الخيار الوحيد للتنفيع الديمقراطي في الوطن العربي وتحقيق الحداثة المنشودة *La modernité souhaitée*، بعدما تمكنت من إسقاط نموذج الدولة الشمولية الديكتاتورية المعطلة لفرص التنمية والتحديث، وإنهاء عصر الوصاية والخنوع والاضطهاد المطلق من طرف النظام.

لقد أحييت الثورات العربية *révolutions arabes*، آمال الشعوب كلها، إذ يبدو أن تجربة التحرر أصبحت تجربة ممكنة (10).

ففي كل الأقطار العربية تقريبا هناك أجيال يئست من الأنظمة الإستبدادية، وفقدت الأمل في التحرر من هذه الأنظمة.

فالثورة التونسية أسقطت النظام البولييسي لبن علي، والثورة المصرية أسقطت النظام الديكتاتوري لمبارك وأبنائه.

فما يمكن ملاحظته حول غايات هذه الثورات، هو أنها كلها توحدت حول ضرورة تغيير الأنظمة التسلطية الحاكمة، والسرعة في إجراء انتخابات ديمقراطية حرة ونزيهة، تقود إلى بناء دولة القانون، تشكل جميعها حراكا اجتماعيا وسياسيا جديدا، ولإطاحة بالظلم والفجور الذي يمارسه النظام الحاكم في حق شعبه.

تاريخيا، ظل العرب يعيشون على هامش التاريخ، بعيدا عن موجة الانتفاضات الديمقراطية مع انتهاء الحرب الباردة الإيديولوجية، التي أعقبتها حالة من الإستقرار المزدوج، وذلك بفعل الإلتفاف بحماسة بالعولمة الليبرالية الأمريكية من جهة، ومن جهة أخرى بسبب ارتحال الديمقراطية في دول تفتقر إلى الوسائل من جهة أخرى (11).

ففي الوقت الذي سقطت فيه الدولة الشمولية في العهد السوفياتي وأوروبا الشرقية، لم تدرك النخب التسلطية العربية الحاكمة جديا تغير بيئة العالم باتجاه الانتقال التدريجي نحو الديمقراطية، وعلى نقیض من ذلك، كانت الدولة العربية تسلطية تدخل في دورة الإكتمال الشمولي، في الوقت الذي كانت فيه هذه الدورة تندثر تاريخيا، وتفقد إشعاعها حتى في وعي النخب الشيوعية السابقة.

ويبدو أن الوطن العربي ظل على هامش هذا التاريخ الكوني *L'histoire cosmique*، فهناك من ناحية الصراع العربي-الصهيوني وإسقاطاته المدمرة، في ظل غياب مشروع عربي لتحرير

الأرض ال المسلوقة، وهناك من ناحية أخرى نعمة الريح النفطي، التي لم توظف لمصلحة بناء اقتصاد عربي منتج قادر أن يستوعب الأجيال الجديدة، من خرجي الجامعات. فقد تفاقمت ظاهرة البطالة في الدولة العربية الربيعية التي لا تدعو مواطنها إلى العمل، أصابت شريحة كبيرة من الشعوب العربية.

و قادت نهاية الحركات الإيديولوجية الكبيرة التي عرفها الوطن العربي، في مرحلة ما بعد نهاية الكولونيالية: القومية و الاشتراكية إلى الصدام بين الدولة التسلطية العربية و الإسلام السياسي المتقوى من انتصار الثورة الإسلامية الإيرانية 1979، قادت هذه المواجهات إلى حدوث حروب أهلية في أكثر من بلد عربي، و في ظل هزيمة الإسلام السياسي La défaite de l'islam politique ، توغلت الدولة التسلطية العربية على المجتمع المدني، و رفضت انتهاج سياسة الانفتاح الديمقراطي.

فالثورات العربية كانت شعبية إلى حد كبير، لم تكن مؤجلة سياسيا و لا دينيا، التي أخفقت في ركوب أحداثها، و عن أن تقود المتظاهرين، و كانت ذات طبع مدني خالص و لم تكن عسكرية .

فعند قراءة الحاضر العربي أمام واقع لا يختلف عما حدث في تونس و مصر بما حدث في ليبيا، أو يحدث في اليمن و سوريا. ففي كل من تونس و مصر لم تنحاز المؤسسة العسكرية إلى النظام الحاكم، على حساب الدولة، انحياز ساعد على اختصار الوقت، و قلل من تكلفة التحول النموذج الآخر، هو تلك الدول التي أقامت مؤسساتها العسكرية لحماية أمن الحكم فيها و ليس أمن الدولة، و سلمت قيادتها إلى الأقارب ممن ارتبطت سلامتهم و نفوذهم و مصالحهم بسلامة الحاكم و دوام حكمه و بقاء غير مستحق (12).

فما قامت به الشعوب العربية و لا زالت كذلك، إلا دليل ثابت على تطلعاتها التغييرية الشاملة نحو الحداثة، و هي في مجملها تطلعات ذات خصائص حضارية عميقة ذات أبعاد حديثة، وذات حس مدني مختلف عن ما هو قائم. فالكائن العربي في ظل استمرارية المعاناة و الاستبداد السياسي و تسلط أنظمة و المؤسسات التشريعية و الإدارية و الحكومية، آمن أن تطلعاته و أماله لا يمكن إدراكها إلا عن طريق العمل الثوري. فالثورة بالنسبة إليه أصبحت ضرورة اجتماعية تغييرية و قوة هائلة لتحقيق البرامج التي يتطلع إليها، و هي غالبا ما تسمى بالبرامج الثورية Programmes révolutionnaires.

و إذا ما قمنا باستقراء المكونات الجوهرية للعملية الثورية العربية، لتبين لنا أن الثورة تنشأ

على ثوابت محددة، ولا تعرف إلا بها، فهي بمثابة قوة تسارع حضارية شاملة على تحقيق التغيير الشامل، وعلى إرساء قواعد البديل الحضاري المنشود، وهذه الثوابت صارت الثورة أفضل خيارات و سبل التقدم و التطور. فالثورة هي ظاهرة بشرية، قبل أن تكون أحداث مادية، هي ظاهرة ميتافيزيقية بامتياز. إذ تظهر ميتافيزيقيتها في قوتها الهائلة على توحيد صفوف الشعب وراء خيار واحد، باختلاف أطرافه و ألوانه و تضارب إيديولوجياته، وتمتص الخلافات و الشروخات التي كانت حاصلة في أوساطه، و هو ما لم تستطع أن تنفرد بها ظاهرة أخرى ما عدا الدين.

فالثورة تملك القدرة التجيشية مثل الدين، إلا أن الثورة في معظم الأحيان تنحصر مطالبها في صناعة الحدث الديني (قضايا زمنية)، و الدين يصبو غايات أخروية، و غالبا ما وظفت الثورة لخدمة قضايا دينية، و أيضا غالبا ما وظف الدين لخدمة قضايا ثورية، فهما متداخلان في كثير من النقاط، و مثل هذه الثورات - الثورات الدينية Révolutions religieuses - معظمها اعتمدتها الشعوب العربية و الإسلامية في تاريخهما، بما أن تاريخهما هو تاريخ ديني، شغلت القضايا الدينية أهم أحداثه، وهذا شيء معروف في ماضي المجتمعات العربية و الإسلامية (13).

لكن الملفت في الثورات العربية الراهنة، هو أنها ثورات تختلف عموما عن جميع الثورات التي حدثت في تاريخها. فهي ثورات إجتماعية و اقتصادية و سياسية ذات مطالب إنسانية محضة، و بمعنى دقيق، هي ثورات جاءت لتغير الوضع القائم من أجل بناء الحاضر و تأمين المستقبل، و بالتالي هي ثورات تنشد التغيير الجذري و ثورات حديثة révolutions modernistes.

ثورات أثبتت، أن الإنسان العربي الراهن أضحى أكثر وعيا لإنسانيته و لظروفه الاجتماعية، فهو يريد أن يبنى إنسانيته بناءا يراعي فيها متغيرات العالم المعاصر (البحث عن مكتسبات الحداثة).

فالإنسان العربي بثوراته المعاصرة يتوق إلى التحديث و التطور. بالثورة صار العربي في الوقت الراهن يبحث عن ذاته، و يريد أن يكشف نفسه بعدما استطاع بثوراته النوعية، أن يكسر جدار الخوف الذي لظالما غلّف نفسه في عصور دكتاتورية الأنظمة المتسلطة، و نحن نعتقد أن الثورة قادرة على التغيير السيكلوجي للذات الثائرة، في ظلها يصير الشعب في قمة عواطفه النفسية، و هو يعيش الغضب و الاحتجاج و العنف و المقاومة و التضحية و الآلام، و هي حالت كلها تعبر الذات فيها عن حضورها و عن صدقها الدفين و عن رغباتها البسيطة و عن حقوقها الطبيعية، حالات تشعر فيها الذات بمدى حرقة المسؤولية التي تحملتها بخيارها

الثوري، و بمدى عظمة المصير التي تواجهه (14).

في ظل استمرار الانهيار الذاتي للذات العربية و الضياع في متاهة الحياة البائسة و قلق تزايد الأزمات و تزاخم موجات الإرهاب و العنف، الذي أضر كثيرا بالإنسان العربي. إذا المجتمعات العربية في كليتها ظلت بحالة الانهيار و القنوط (15).

فبالثورة يمكن اختزال المراحل لبلوغ الهدف المنشود و إعادة تشكيل التاريخ من جديد حسب مقاصد الوعي الاجتماعي الثائر، و بهذه الآليات يحدث المنعطف التاريخي للإنسانية، و لكن لماذا الثورة في المجتمعات العربية؟ و لماذا في هذا الوقت بالذات؟.

في تحليلنا لطبيعة الثورات العربية الرهنية، يمكن إرجاعها إلى ثلاثة عوامل رئيسة و هي على التوالي:

العامل الأول يتمثل في توالي الانكسارات و الهزائم على المجتمعات العربية تقريبا خلال قرنين من الزمن على جميع الأصعدة (الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية و الثقافية..). انكسارات أفضت إلى التراجع الحضاري و انغرس الكيان الصهيوني في أعنتق مناطقه، و انهزامها في معظم الحروب التي خاضتها ضد هذا الكيان، و انحصار المد العربي الإقليمي و العالمي، في الوقت الذي برزت فيه قوى مجاورة، رمت بثقلها على استقرار المنطقة العربية، و هما الجمهورية الإيرانية من الشرق ، و جمهورية تركيا من الشمال. اللتان حققتا قفزات نوعية على المستوى الداخلي و الخارجي، مما ولّد شحنات غضبية بين أوساط الشعوب العربية، اتجه أنظمتهم في ظل تراجع دولهم مقارنة ما يحدث في الجوار.

أما العامل الثاني الذي يتمثل في فشل مشاريع النخب المثقفة، التي حملت هاجس النهضة و أسئلة التقدم على عاتقها، برغم اختلاف توجهاتها و مرجعياتها و أسئلتها، إذ لم تعد الجماهير العربية تنتظر ما ينتجه المثقفون حول قضايا الأمة، فهي أصبحت على قناعة أن المثقف العربي أصبح عاجزا على التغيير، و هذا العجز يعود إلى عدة أسباب، منها أن بعض المثقفين استطاعت الأنظمة ابتلاعهم، و عوضا أن يحملوا هموم المجتمعات و أن يعبروا عن طموحاتها، أضحوا يحملون هموم الأنظمة و مشاغلها، و تحولوا إلى أدوات تبريرية لمنتجات الأنظمة القمعية ، أو ما يعرف بالمثقف العضوي.

و بهذا الابتلاع يمكن أن نقول أن الدولة، استطاعت أن تنسي المثقفين انشغالاتهم الحقيقية التي تكونوا من أجلها، و بالتالي أصبح المثقف العربي إلى حد بعيد يعيش حالة اغتراب رهية داخل سياجات الأنظمة السلطوية في شكل دفاعات بشرية ضد شعوبها. أما المثقفون الذين لا

زالوا يحافظون على سياقاتهم الأصلية رغم قتلهم، هم آخرون لم يتمكنوا من اختراق حصون الأنظمة التسلطية، نظرا لطبيعة توجهاتهم المعرفية التي هي في معظمها ذات أبعاد مثالية أبعدت الفرد العربي عليه أكثر من أن تقربه إليه، و عليه ظل هذا النوع من المثقفين حبيس جدله و يفكر لنفسه، يبحث عن الحلول الثقافية للهواجس الذاتية التي تؤرقه، و بالتالي استمروا في البحث عن أنفسهم في ظل كثافة الأسئلة الأنطولوجية ontologique من النوع الصارم، حيث لم يعد تهمه انشغالات الجماهير، و أيضا لم تعد تهمه انشغالات الأنظمة، و الدول و العلاقات الحاصلة بينها، و إنما الذي بات يهمه، هو الوجود كله أو الحقيقة، و هم فلاسفة حقيقيون في هذا التوجه.

في ظل تزايد مفارقات النخبوية التي يعيشها المثقف العربي المعاصر، تقدمت الجماهير العربية الشعبية بثوراتها كخيار نهضوي بديل عن الخيارات النخبوية، و من هنا يمكن أن نقرأ الثورات العربية كمشاريع نهضوية حضارية بديلة عن المشاريع التقليدية، و منها مشاريع النخب المثقفة (16).

و العامل الثالث، يظهر في انحصار المد الأيديولوجي بين الجماهير العربية، فلم تعد الجماهير العربية تثق في الخطابات الإيديولوجية و الحزبية، كونها هي الأخرى رغم حراكها الكثيف، في أن تجد مخرجا للمأزق الذي تعيشه المجتمعات العربية، و عليه كانت شرارة انطلاق الثورات العربية صافية من أية إيديولوجية، حتى الدينية منها، و يمكن أن نتنبأ من نتائجها أن تكون جد مهمة في البناء الاجتماعي العربي الجديد. و الملاحظ أن الإيديولوجيات الدينية كانت الخاسر الأكبر في ظل هذه الثورات، فبتراجعها يمكن أن يحل خطابا آخر و مختلفا عنها و هو الخطاب الاجتماعي، الواعي و العقلاني، و هي إشارات أولية عن بداية تحرر الوعي العربي المعاصر من علاقات الخطابات الدينية التي لا تراهن على مكتسبات الحداثة.

الثورة و قوة التحديث: إن روح الثورة لدى الشعوب المضطهدة، هي ظاهرة قديمة، قدم الأنظمة الاستغلالية، القائمة على خلق التناحر بين الطبقات الاجتماعية.

ففي مصر القديمة و المجتمعات العبودية في العالم القديم، و في الممالك الاستبدادية الآسيوية و أوروبا الإقطاعية في القرون الوسطى، ثارت حركات جماهيرية كانت رائدتها النقمة على المظطهدين، في تلك الحركات بقلة الجراة و الإقدام الثوري و الصمود و التضحية، إلا أن احتجاجهم على الاستغلال، لم يكن بوسعه أن يتكون في نظرة إلى العالم متكاملة، و منسجمة ثوريا و مصاغة نظريا بصورة محكمة.

إن في نشوء مثل هذه النظرة الثورية إلى العالم، لا بد أولاً: من مستوى معين لنضج التناقضات الاجتماعية و الطبقية الموضوعية، و ثانياً: لا بد كذلك من مقدمات فكرية- نظرية معينة ذات أهمية موضوعية- أيضاً، و ثالثاً: لا بد من دخول التطلعات الثورية المطروحة عفويا، من طرف الجماهير الشعبية في تحالف مع التفكير الثوري المتطور و الناضج، القادر على التحليل النظري الإبداعي للعملية الثورية و ثوارها المحركة و أفاقها. و لا بد أيضاً على وجه الخصوص من دخولها في تحالف مع الفلسفة التي تضع مبادئ و منهجية التحليل النظري للعملية الثورية، فبدون ذلك يحكم على الوعي الثوري بعدم النضج النظري و بعدم الانسجام و الثبات.

إن الحركة الثورية الشعبية التي يعيشها الراهن العربي اليوم، لتعبر بشكل مكثف عن هذه الاجتماعية المندفعة، مجسدة بذلك ديناميكية، و هي تحل نظريا و عمليا المهام الجديدة التي تطرحها الثورة، و يجري وضع هذه الحلول على أساس الهوية العربية، فالثورة تتيح للذات الثائرة الراضة قدرة استيعابية لما هو مرغوب فيه.

و بالتالي، لما كان حلما في ظل الهيمنة الديكتاتورية و أيام التسلط الحمراء، التي حتما ستدفعه للبحث عن البديل الحضاري، و هذا البديل في كل الظروف، لا يكون إلا ما هو مناقض لمعايير السلطة الحاكمة، و لكل ما يدخل في تكوينها السياسي و الثقافي، و بلغة واضحة، البحث عن المناخ الإنساني الذي لطالما عمل النظام على إخفاءه و إجهاضه، و السعي إلى الحفاظ على ما هو قائم بجميع صيغه.

و إذا ما قمنا بفحص إستراتيجية هذه العملية، و فكنا مقاصدها، لتضح لنا أن بالأساس، تقوم على عنصر القوة و العنف، أو ما يعرف بالعنف المشروع. لأن غالبا ما تتم عملية الحفاظ على ما هو كائن من الزوال و السقوط، إلا بطريق توظيف آليات العنف و التهريب.

و عليه غالبا ما يوظف النظام لغة العنف و البطش، و هو ما تبتته بعض أنظمة العربية المعاصرة في تعاملها مع شعوبها(17).

و من الطبيعي أن نجد الغريزة الثورية للجماهير المقهورة، كانت ملتحمة مع الفكر السلمي، و مع صفاء الذهن الإنسان المقهور، الذي عانى من الاضطهاد الواقعي و من بؤسه. و لكن هذه السمات بالذات على أضعف الحال، ظهرت في تصرفات مؤطري الثورات العربية، الذين ساهموا بشكل فعال في إذكاء الثورة و انتشارها.

الفلسفة و الثورة: لم يكن بإمكان الصراع ضد الاضطهاد و الديكتاتورية و الاستبداد، أن يصبح ناجحا فعلا بدون تغيير راديكالي لبنية الواقع العربي الراهن، و ذلك يعني تغيير نمطية

الوعي السائد والمتداول. وحينما نتحدث عن هذا الفعل، فهذا يعني أننا نتحدث عن فعل فلسفي محض، بإعادة النظر في مجمل منظومة المبادئ ومناهج التفكير الأساسية، التي تحدد موقف الإنسان من الواقع المحيط به، وهو ما كان سائدا في المرحلة التي مهدت للثورات الاجتماعية في أوروبا في نهاية القرن الثامن عشر و القرن التاسع عشر، وأهمها الثورة الفرنسية عام 1789، وهي كلها مقدمات موضوعية لإعادة النظر في العالم ككل، وإعادة النظر في التفكير.

ففي ذلك الوقت بالذات، أخذ ينتشر النقد المنسجم منهجيا لتقاليد وعادات وجهات النظر الدينية غير العلمية للعالم.

وقد أحرز هذا النقد، أكبر النجاحات في البداية، في طرح وحل قضايا العلوم الطبيعية والاجتماعية، وكانت تلك القضايا مرتبطة بالدرجة الأولى، بإدراك الطبيعة والعلاقات الطبيعية بين الطبيعة والإنسان (18).

فإذا ما صارت الثورات العربية، في إمكان النظر العقلي والعمل النظري، سيمكن حتما التحكم في جميع التوجهات التقليدية التي كانت مكبوحة في ظل الاستبداد، سواء كانت دينية أو علمانية أو قومية، وتوظيفها في إطار ثوري واحد، حتى يمكن أن تمتص كل الشروخات الإيديولوجية التي فتت لحمة شعب واحد، وتهدد الثورة وتعيقها، وهذا راجع إلى ما تملكه هذه الاتجاهات من تأثير هائل على تفكير الناس، وعلى الحياة الاجتماعية عامة.

فالتفكير العلمي، هو الآخر يعطي للثورة بعدا آخر أكثر راديكالية. فرضيات كوبرنيكوس على سبيل المثال، حول مركزية النظام الشمسي، قد زعزت أحد ثوابت العقل الكلاسيكي والديني، واستطاعت اكتشافات الطب لوليام هارفي عن الدورة الدموية، أن توجه ضربة جديدة للتصورات القديمة عن الإنسان وعن تشريح العضوية الإنسانية. إلا أن الأمر الرئيسي، لم يكن ينحصر في الاكتشافات المتناقضة مع هذه العقائد الملموسة، بل في طراز وأسلوب التفكير الذي نجمت عنه هذه الاكتشافات، والذي أخذ يتكون أكثر فأكثر في منظومة متكاملة لمبادئ ومناهج النشاط العقلي والتفكير العلمي، والمعارضة تماما للتفكير اللاهوتي.

فإن هذه الثورات العلمية الحديثة، التي جرت في أوروبا مكنت المجتمع الأوروبي من الانتقال من الحرفة الورشية القديمة، المعتمدة على التقاليد، إلى تكنيك المانيفاكتورا والتكنيك الآلي. ونشأت قوة منتجة جديدة وأدوات عمل جديدة، وطرق لتنظيم الإنتاج.

لذلك فإن الشكل النموذجي لهذه الحركة، ولعمل العقائد الميداني والعالم والفيلسوف، هو

النشاط الخاص للفكر الهادف إلى الاستجلاء الداخلي للوعي، الذي يؤدي للوضوح و الدقة و الانسجام المنطقي لفكر الإنسان، و إلى انتقاد الأحكام التي تتميز بعدم الوضوح و التناقض الداخلي و إزالتها من مجال الفكر.

فكانت السمة المميزة للحركة الثورية في أوروبا في هذه الفترة، هي إعادة بناء الثقة المطلقة بالعقل و المنطق و العلم و الخشوع أمامها، فكانت الفلسفة الاجتماعية للقرنين السابع عشر و الثامن عشر، تنطلق بصورة واضحة من المقولة القائلة، بأن تطبيق الحرية المدنية يعتبر أساسا كافيا لبناء المجتمع المثالي، و كانوا يفهمون هذه الحرية على أنها تحرر من الفروض الإقطاعية و قيود تقسيم المجتمع لفئات و كمساواة للناس أمام القانون.

لقد اضطلعت النظرية الفلسفية ، التي وضعها الفلاسفة المتنورون، بدور كبير في تطور الحركة الثورية لاحقا.

إن المثال الاجتماعي لفلسفة التنوير، كان نتيجة للتفكير الإنتقادي الذي ينفي النظام الاجتماعي القائم التقليدي.

لقد تطلّب التاريخ، إعادة النظر في طبيعة تعامل الأنظمة مع مجتمعاتها، و تجلت هذه الإعادة في الثورات الجماهيرية، التي أعطت دلالات قاطعة، على رفض ما هو سائد. فامتدت الأمزجة الثورية الإنتقادية لمكونات المراحل السائدة، التي كانت عائقا للتطور و التقدم و الانفتاح و الحرية، و هذا ما برهنت عليه أحداث الثورة التونسية و المصرية على سواء.

إن قضايا الأساسية لثورة تونس و مصر و باقي الثورات العربية اللاحقة، كانت منذ البداية قضايا اجتماعية متعلقة بالعمل و الشغل.

فتحطيم الأنظمة القائمة العربية، لم تكن مهمة أشخاص معينين، و إنما كانت مهمة للانتفاضة و التغلب على السيادة المنفردة، و إن إسقاط هذه الأنظمة مع إبقاء البنية السلطوية التي أحدثها ذلك النظام، يعني عدم الوصول حتى إلى منتصف الطريق.

إن الطبقات الثورية التي تسعى إلى القضاء على النظام الاجتماعي المستغلة و المضطهدة في ظله، تصطدم بالمقاومة من جانب الطبقة المسيطرة و المستغلة، بل إن الطبقات الثورية تصطدم حتما بالقوة السياسية و الإيديولوجية للطبقة الحاكمة، و تلقى الثورة الشعبية مقاومة هائلة من جانب التنظيم السياسي بأسره للطبقة الحاكمة و بالدرجة الأولى من جانب دولتها(19).

و تصطدم الثورة أيضا بمقاومة منظمات سياسية، مثل الأحزاب السياسية، و الاتحادات

والتكتلات التي تستخدمها الطبقة المسيطرة اقتصاديا، من أجل بلوغ هيمنتها في المجال السياسي، و من أجل الحفاظ عليها، وهي تؤمن عن طريق هذه المنظمات و الأحزاب رص صفوفها، و كذلك دعم الفئات الأخرى من شرائح الشعب.

و تواجه الطبقات الثورية كذلك، مقاومة أجهزة المحاكم و كافة الهيئات التشريعية التي تتولى مهمة المحافظة القانونية على المصالح الاقتصادية، و الدفاع عن النظام التشريعي.

فأثناء وضع الخطط الثورية المناسبة و تنفيذها، ينبغي على الثورة أن تتغلب على المقاومة المضادة، العادات و نماذج السلوك و القواعد الأخلاقية و القيم الموجهة للفرد، و التصورات و الأفكار المختلفة، التي تنعكس فيها الخصائص المميزة لعلاقات الإنتاج المسيطرة.

فمن الناحيتين التاريخية و الوظيفية تتلاءم مع هذه كلها، مع تلك العلاقات. فالنظام الحاكم يعتمد إلى حد كبير على هذه العوامل الروحية و القيمية، و يؤمن بمساعدتها إعادة إنتاج الاضطهاد الاجتماعي و الدفاع الإيديولوجي الفكري و السيكلوجي عنه.

إن الدولة في ظل هيمنة النظام الحاكم فيها، توظف هي الأخرى لصالح تحقق المصالح المختلفة لهذا النظام، مستخدمة في ذلك كل أجهزتها القمعية، و بالتالي تتحول إلى وسيلة في يد النظام الحاكم.

إن مسؤولية الثورة أمام الناس، الذين يعانون الآلام، هي أيضا مسؤولية أمام متطلبات المجتمع، و أمام التاريخ، حاضره و مستقبله، فبدون الشعور بالمسؤولية أمام الكل الاجتماعي، لا معنى للمسؤولية الحقيقية أمام الضحايا و المفقودين.

و بهذا الإيمان، أصبح النضال ضرورة تغييرية و مطلب حضاري، للتجدد و لكسر قيود الأنظمة الطاغية كما حدث على الطريقة العربية.

قائمة المراجع :

1. Dommenaich jean : Approche de la modernité Ellipses p 18 .
2. نقلا عن يعقوب ولد قاسم، الحداثة في فلسفة هيجل، مركز الكتاب للنشر، ط 1 2003 ص 27.
3. المرجع نفسه ص 29.
4. Dommenaich jean : Approche de la modernité p 13 .
5. هيرماس يورغان، القول الفلسفي للحداثة، ترجمة فاطمة الجيوشي ص 08 .
6. تيتشارد كرونر، فريدريك كوبلستون، روبرت سولمون، طور هيجل الروحي، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، التنوير للطباعة و النشر و التوزيع ط 1 2010 ص 89 .
7. - بن عبد العالي عبد السلام، التراث و الاختلاف، دار التنوير للطباعة و النشر ط 1 بيروت 1985 ص 99
8. - اميل برييه، تاريخ الفلسفة-ج-1 ترجمة جورج طرابشي، دار الطليعة ط 1 بيروت 1983 ص 83.
- 9- خير الدين حسيب: حول الربيع الديمقراطي العربي: دروس المستفادة، مجلة المستقبل العربي، ع 386 أبريل / 2011، مركز دراسات الوحدة العربية ص 07.
- 10- المرجع نفسه ص 08.
- 11- توفيق مدني: ربيع الثورات الديمقراطية العربي، مجلة المستقبل العربي، ع 386 أبريل / 2011، مركز دراسات الوحدة العربية ص 113.
- 12- المرجع نفسه ص 114.
- 13- حاسم خالد السعدون: ربيع العرب... فائت أم دائم، مجلة المستقبل العربي، ع 390 أغسطس / 2011، مركز دراسات الوحدة العربية ص 129.
- 14- مونس بخضرة: تاريخ الوعي، مقاربات فلسفية حول جدلية ارتقاء الوعي بالواقع، الدار العربية للعلوم، ط 1 2009 بيروت ص 12.
- 15- المرجع نفسه ص 14.
- 16- جاك دريدا- الزابيت رودينيكيو: ماذا عن غد، دار كنعان للدراسات و النشر و الخدمات الإعلامية، محاورة، ترجمة سلمان حرشوف، ط 1 2008 ص 146.

- 17- مونس بخضرة: فنومينولوجيا التاريخ، مجلة الإنسان و المجتمع، العدد الأول جوان 2010، ص 137.
- 18- زاموشكين، سولوفيوف، موتروشييلوفا: الفلسفة و العملية الثورية، دار التقدم موسكو، ص 03.
- 19- المرجع نفسه ص 28.